

الإعجاز البياني في آيات وصايا لقمان الحكيم وما ينطوي عليه من قيم

أ. د. مصطفى إبراهيم المشني

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

تاريخ الاستلام : 2008/11/15

تاريخ القبول : 2009/12/29

الخلاصة:

يتناول هذا البحث الإعجاز البياني في وصايا لقمان، وما ينطوي عليه من قيم، هادفاً إلى تأكيد حقيقة تفرد القرآن الكريم بإيجاد الإنسان الصالح النموذج القدوة، من خلال بنائه المحكم المتوازن روحياً ونفسياً وعقلياً، وعاطفياً، ليكون إنساناً إيجابياً في ذاته، فاعلاً في مجتمعه وإنسانيته، منضبطاً بمنظومة من القيم العقدية والدعوية، وأصول العبادة الحقة، متحلياً بقواعد البر، والسلوك، وفضائل الأخلاق، مستشعراً الرقابة الإلهية. يأتي ذلك كله تجسيداً لتربية الحكمة، وحكمة التربية.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

إنه غني عن البيان أن القرآن الكريم ﴿ كَتَبَ أُحْكِمَتْ أَيْنُهُمْ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: 1] يهر العلماء والفقهاء بما اشتمل عليه من نظم وتشريعات، وأعجز الفصحاء والبلغاء بما تضمنته من نظم وتأليف؛ فكان حقيقاً أن يوصف بأنه فوق الطاقة البشرية؛ إنه الرسالة المعجزة، والكتاب المنهج الذي رسم قواعد صلاح البشرية، وأرسى دعائم وجودها وديمومتها، محدداً المسؤولية الفردية والجماعية، موضحاً أبعادها وجوانبها ضمن منظومة من القيم والمثل العليا باعتبارها ثوابت الحياة وأصولها المستقرة.

وحرري بالبيان وهنا أن القرآن الكريم قد أورد نماذج تعد أمثلة تطبيقية اقتدائية، تترجم مدى أهمية أحقيتها بالاتباع، لتمثلها تلك القواعد والأصول والمثل العليا، نشداناً لسعادة الإنسان، وتحقيقاً لتطلعاته إلى حياة طيبة وآخرة مأمونة.

ونحن في هذا البحث مع منظومة من تلك القيم والثوابت التي نطقت بها آيات محكمات من سورة لقمان في وصاياه وحكمه، تلك التي ترسم صورة واضحة لمقومات الشخصية المؤمنة - النموذج - الفاعلة المتوازنة، المنضبطة بتلك المثل العليا، والقيم العقدية والتربوية... عبر تلك التوجيهات الهادئة والإرشادات الهادفة، المحوطة بالحرص التام النابع من الأبوة المتصفة بالخبرة والحكمة، والمتدفقة بالحنان والعطف والرحمة، إلى النبوة المتأدبة المتواضعة، الشغوفة لتلقي تلك التوجيهات التي هي منارات هادية في عالم التربية والعلم والسلوك والسعادة الأبدية.

والحق أننا في أمس الحاجة إلى هذه الحكم والوصايا في زمان استحكمت فيه المادة وانتقلت فيه المعايير والموازين، وانشغل الآباء، وتمرد الأبناء.. فلعل هذا البحث ما يتحقق به المُنِيَّة وإصابة الغرض، ولا سيما أنه لم يكن مسبوقاً بهذا العنوان وفق ما تنهأى إليه علمي وإطلاعي، على أن ثمة أمراً آخر يضاف إلى ما تقدم دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع وهو أن ما تنطوي عليه هذه الآيات من أصول تربوية وفوائد توجيهية وإرشادات جليلة صلاحها للأجيال، بصرف النظر عن الزمان والمكان؛ على اعتبار أنها قرآن اتصف بأعلى طبقات البلاغة والفصاحة والإعجاز.

وقد اقتضت طبيعة البحث في هذا الموضوع أن أقسمه إلى: مقدمة، وتمهيد، وستة مطالب، وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة: اشتملت على مدخل للموضوع وسبب اختياره.

التمهيد: تناولت فيه التعريف بلقمان الحكيم، والحكمة وعلاقتها بالنبوة.

المطلب الأول: مناسبة آيات لقمان (11 - 19) للسورة ذاتها.

المطلب الثاني: نعمة الحكمة والدعوة إلى الوحدانية وتمثلها الآيات (12 - 13).

المطلب الثالث: بر الوالدين وحسن التأسّي والاقتداء الآيات (14 - 15).

المطلب الرابع: صفة العلم الإلهي وآثارها في السلوك الآية (16).

المطلب الخامس: مراتب العبودية ومقتضياتها.. وآثار ذلك في الدعوة الآية (17).

المطلب السادس: أسس بناء الشخصية وضوابطها الأخلاقية (الآيتان 18 - 19).

الخاتمة.

ومما تحسن الإشارة إليه هنا أنني جعلت قاعدة هذا البحث الإعجاز البياني ومفرداته ودلالته، بحيث تتأكد حقيقة فردانية المنهج الإلهي وتميزه في إيجاد الإنسان الصالح النموذج لذاته، والفاعل في مجتمعه ومحيطه الإنساني.

وإنني لأرجو الوصول إلى ما أطمح إليه من أهداف، وأثبت ما أنشده من قضايا تُعد حقائق تستوجب الامتثال والاتباع، مستلهماً الصواب والسداد ممن هو قصدي - جل وعز - ونهاية غايتي.

التمهيد: لقمان الحكيم والحكمة وعلاقتها بالنبوة.

ويتضمن مقصدين:

المقصد الأول: التعريف بلقمان الحكيم.

المقصد الثاني: الحكمة وعلاقتها بالنبوة.

المقصد الأول: التعريف بلقمان الحكيم:

لقد ثار جدل حول شخصية لقمان الحكيم⁽¹⁾، واختلفوا في تحديده على التعيين، ولست ههنا معنيًا بهذا الخلاف ضرورةً أنَّ هذا ليس مدار بحثنا، ولا هو من جوهره، وما دام القرآن الكريم لم يلتفت إلى ذلك كله فالغاية منه مصروف عنها؛ إذ مدار الأمر على ثبوت تلك الشخصية وصدق وجودها، ثم ما لتصفت به من حكمة، وما نطقت به مما هو حقيق أن يكون ثوابت وفيماً علياً على مر العصور والدهور وللأجيال على تعاقبهم.

تذكر المصادر أن لقمان المذكور في القرآن الكريم هو: «لقمان بن ناعور بن ناحور بن تارخ وهو آزر، وهو ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته، وكان قاصياً زمن داود عليه السلام»⁽²⁾ وموطنه الحبشة، وقيل: إنه من بلاد النوبة جنوب مصر⁽³⁾.

وجمهور السلف على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً⁽⁴⁾، وذكر أنه عرض عليه النبوة والحكمة فأبى النبوة وقيل الحكمة؛ لأنها أسهل، وخير بين الحكم والبلاء... وغير ذلك مما قيل مما لا أصل له، ولم يثبت بسند صحيح، ومما يحسن ذكره أن النبوة إنما هي اصطفاء محض من الله تعالى ومنة منه.

وتجمع الروايات على أن لقمان الحكيم كان على خلق، صالحاً، غاض البصر، كفّ اللسان عنه، وفي العهد، حافظ الجار والودّ، مؤثياً للأمانة، تاركاً ما لا يعنيه، وكان ذا

عبادة وعبرة، وحكمة عظيمة، سكينًا طويل التفكير، عميق النظر، إن تكلم تكلم بحكمة، وإن تفكر تفكر بحكمة، وإن تحرك تحرك بحكمة، لا يعيد منطقًا منطقًا إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد⁽⁵⁾.

هذه صفات لقمان الحكيم تشهد له بأنه كان على خلق وحكمة، وإذا كانت هذه شهادة المؤرخين وأصحاب التراجم، فإن شهادة القرآن له بذلك لا تدانيها شهادة بل لا ينهض غيرها عندها، وصدق العظيم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لقمان: [12].

المقصد الثاني: التعريف بالحكمة وعلاقتها بالنبوة.

الحكمة في اللغة والاصطلاح:

جاء في المعجمات اللغوية أن الأصل في الحكمة: المنع، وهو مأخوذ من الحكمة - يفتح الحاء والكاف - وهي الحديد التي توضع في فم الدابة لتمنعها من الجموح، قال ابن فارس: «الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو: المنع، وأول ذلك الحكم وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة؛ لأنها تمنعها، والحكمة هذا قياسها؛ لأنها تمنع من الجهل والمحكم: المجرب المنسوب إلى الحكمة»⁽⁶⁾.

وقال ابن منظور: «والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات وينقلها حكيم»⁽⁷⁾.

وفي تاج العروس: «والحكمة: العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والعمل بمقتضاها، ولهذا انقسمت إلى علمية وعملية، ويقال: هي القوة العقلية العلمية، وقيل: الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعمل، فالحكمة من أ : معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفته وفعل الخيرات، وأحكمه منعه من الفساد»⁽⁸⁾.

وفي ضوء ما تقدم، فإن معنى الحكمة يدور حول المنع، فهي تمنع صاحبها من الجهل والفساد والسفاهة والظلم؛ ضرورة أنها القوة العقلية، والعلم والمعارف المتحصلة من التجارب، وأنها إيجاد الأشياء على غاية من الإتقان والإحكام، وهي إصابة الحق وفعل الخيرات والوقاية من الآفات.

وجملة القول: إن الحكمة عمودها العقل، وجوهرها العلم والمعرفة، ومظهرها الصواب في القول والعمل، وهي منة من أ فضل، قال الغزالي: «الحكمة فضيلة القوة العقلية، وهي التي بها تتلقى حقائق العلوم الكلية الضرورية والنظرية من الملاء

الأعلى، وهي العلوم البينية أزلًا وأبدًا»، وفي موضع آخر: «أما الحكمة فيندرج تحت فضيلتها حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي وصواب الطن» وعند الحديث عن ثمرتها يقول: «وثمرتها أن يتيسر لها الفرق بين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الصدق والكذب في المقال، وبين الجميل والقيح في الأفعال»⁽⁹⁾.

أهمية الحكمة وعلاقتها بالنبوة:

تبدو أهمية الحكمة واضحة جليلة كونها صفة جامعة بين العقل والعلم والمعرفة والعمل النافع، وتتجسد فيها صفات الرحمة والأناة، والعفو والرفق واللين في القول وغير ذلك.

ويكفي الحكمة أهمية ومَنْزِلَةً أن ا تعالى سمي نفسه بها ووصف بها ذاته، فهو العزيز الحكيم، وهو العليم الحكيم، أحكم الحاكمين، الحكيم الخبير، الواسع الحكيم...

ثم وصف سبحانه كتابه بهذه الحكمة فقال: ﴿كَتَبْنَا الْحِكْمَةَ بِيْنَهُ ثُمَّ نُفِصِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]، ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 58]، ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: 1، 2] ثم كانت الحكمة لأنبياء ا جميعهم، قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: 81]، وفي شأن عيسى عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 48]، وفي داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَاهُ بِحِكْمَةٍ وَفَصَّلْنَا الْخُطَابَ﴾ [ص: 20] والحكمة هنا النبوة⁽¹⁰⁾.

وهكذا تتضح أهمية الحكمة ومنزلتها من خلال تعريفاتها، ومن خلال ما وصف ا بها ذاته العلية، ثم كتابه وأنبياءه، وعليه فإن الحكمة لازمة للنبوة والرسالة التي تقتضي بالضرورة الدعوة إلى ا بالعقل، والحلم والأناة والرحمة، وحسن التدبير وسلامة التصرف، وسرعة البديهة والتوازن في معالجة الأمور وفق ما تقتضيه المصلحة الدعوية، فالرسالة والنبوة لا تتضمن الحكمة فحسب وإنما هي في أعلى درجاتها وأبعد غاياتها.

ثم إذا كانت الحكمة منه من ا تعالى وهبة يؤتيها أفضل خلقه وخيرتهم، ويصطفي لها من يصنع على عينه، فإن للأتباع المقدين نصيبًا وللأخيار منها حظًا ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

قال ابن كثير: « والصحيح أن الحكمة كما قال الجمهور لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع »⁽¹¹⁾.

وفي الختام فإن الحكمة مُنيّة كل عاقل، ومطمح كل فاضل، يُعْبَطُ من حازها وَيَسْعَدُ من نالها، قال رسول الله ﷺ: « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها »⁽¹²⁾.

ومن الأخيار الذين أوتوا هذه النعمة والنماذج الذين فضوا بها وعلموها لقمان الحكيم الذي نحن بصدد دراسة حكمه التي هي مدار بحثنا وما تنطوي عليه من قيم نترجم مفرداتها وتجسد أبعادها ومظاهرها كما سيأتي ذلك على وجه التفصيل إن شاء الله.

آيات وصايا لقمان الحكيم 12 - 19:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ ۝١٢ وَلَئِذَا قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يُعَلِّمُهُمُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۝١٤ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ مَسِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥ يَبْنَى إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦ يَبْنَى أَقْرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَأَقْصِدْ فِي سَبِيلِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمُخْمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان: 12 - 19].

المطلب الأول: مناسبة آيات لقمان لموضوعات السورة:

إن البحث في هذا الموضوع يستدعي التعريف بسورة لقمان وذكر موضوعاتها، والتناسب بينها، لبيان الوحدة الموضوعية التي تنهض بجسم السورة، وتشكل شخصيتها، ومن ثم تأكيد حقيقة أن إعجاز القرآن في نظمته وتأليفه، وأنه على نسق واحد من العلو في البلاغة والفصاحة على اختلاف موضوعاته.

سورة لقمان: مكية بالإجماع، وما استثنى من آيات قيل إنها مدنية فمردود بالنقل والعقل⁽¹³⁾.

وموضوعاتها: هي موضوعات المكي الذي عني بالعقيدة وموضوعاتها وبخاصة الدعوة إلى الوجدانية.

ولقد سلك القرآن الكريم لبيان هذه القضايا وتوكيدها طرائق وأساليب تنوعت وفق ما تقتضيه ظروف الخطاب وأحوال المخاطبين، وما تستدعيه طبيعة الدعوة من أدلة وبراهين، وسنن كونية وآيات أنفسية، وقصص وأمثال، وحكم، وترغيب وترهيب، وغير ذلك مما يدور حول مصلحة الإنسان الذي هو محور الوجود وسيده.

إن ما تضمنته السورة من ذلك يمكن تقسيمه إلى مقاطع أربعة⁽¹⁴⁾:

الأول: وتمثله الآيات الإحدى عشرة الأولى (1 - 11) الآيات ﴿الْأَوَّلَ﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ إلى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ فِي صَلَاتِكُمْ إِنَّكُمْ عَلَىٰ ظُهُورِكُمْ أَوْفَاقٌ﴾ ويتناول السنن الإلهية الهادية وأعلى مظاهرها التعبدية: الصلاة.. الزكاة.. المنتظمة في سلك الآيات الفرآنية، ثم تعرض إلى الأدلة والبراهين على اتصافه تعالى بالفردانية والوجدانية، المنتظمة في سلك الآيات الكونية، مع بيان الفريقين فريق الجنة الذي اهتدى فأطاع وامتلأ، وفريق النار الذي ضل وغوى فاستكبر وهوى.

المقطع الثاني: الآيات من الثانية عشرة إلى التاسعة عشرة (12 - 19) من قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ...﴾ إلى قوله: ﴿... إِنَّكَ أَكْثَرُ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْخَيْرِ﴾.

وتحدثت عن وصايا لقمان الذي قدّم المثل النموذج، العارف با ، وحكمه التي مثلت منظومة من الثوابت والقيم والمثل العليا التي ينبغي أن يتصف بها الإنسان الصالح المحقق لسعادته الدنيوية والأخروية.

المقطع الثالث: من الآية عشرين إلى آخر ثمان وعشرين (20 - 28) من قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَجِدَةٍ﴾.

وفي هذا المقطع يأتي الحديث عن مقام الإنعام الإلهي على الخلق؛ بتسخير الكون ومكنوزاته، وما أفاض على عباده مما يستوجب الإيمان والاستسلام له وشكره وحمده والتمسك بعقيدته، وتطبيق شريعته؛ ضرورة أن له الخلق والأمر، وأن مشيئته في الخلق والإنشاء مطلقة، فلا يُعَيِّبه الخلق الجديد أو الإحياء والبعث.

المقطع الرابع: من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ الشَّمْسَ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ سَاعَةِ الشَّمْسِ... عَلَيْهِ خَيْرٌ﴾ (29 - 34).

لقد عرضت هذه الآيات لنمط آخر من السنن الكونية على وجه التفصيل؛ تمثل في تعاوب الليل والنهار، وحركة الشمس والقمر، وجريان الفلك في البحر، وما يعرض للإنسان من كروب لا يرى النجاة منها إلا بالضراعة إلى الله، واللجوء إليه وحده، مع التخلي عن القوى التي تقف عاجزة أمام تلك القدرة الإلهية، المتفردة بإيجاد السنن، وتنظيمها على غير مثال سبق.

ولدى النظر فيما تقدم كله فأرى أنه يصلح أن يكون مدخلاً حسناً، وتمهيداً محموداً للحديث عن مفاتيح الغيب - خاتمة آيات لقمان - التي لا يتحكم فيها إلا هو جلت قدرته، وهذا بالقطع مدعاة للاعتقاد بمفرداتها على الإجمال والتفصيل.

وفي ضوء وضوح محور السورة وبيان موضوعاتها تتراءى المناسبة بين موضوع آيات حكم لقمان وغيرها من موضوعات السورة، حيث كان هذا المقطع يمثل دعوة لكل ما تضمنته تلك المقاطع؛ فالدعوة إلى عقيدة الوجدانية في حكم لقمان تنهض بها الآيات الفرآنية والسنن الكونية، وما رافقها من دلائل على القدرة الإلهية في الإيجاد والتدبير، والإنعام بتسخيره تعالى لما أفاض من آلائه ونعمائه... وهذه العقيدة تتقدم كل الاعتبارات، وتتفوق عليها حتى لو كانت رابطة الأبوة والبنوة التي تقوم على الدم والنسب.

ثم يأتي المقطع لينسجم تماماً مع ما قررته تلك المقاطع من اتصافه تعالى بالعالم المطلق والمشئنة المطلقة.

وذلك يستدعي مراقبته تعالى في جميع الأحوال والأحاليين، وهذا لا يتأكد إلا بالإيمان، ثم يعمق ويشثت بالعبادات والطاعات والصلاة والصدقة... والتواضع له جل وعز مع الإخلاص والإنابة والتوكل والصبر والتسليم والرضا.

ومقتضى هذه الوصايا تجسيد الإيمان بالغيب وعلى رأسه الإيمان باليوم الآخر والرزق والأجل والقدرة خيره ونشره.

المطلب الثاني: نعمة الحكمة والدعوة إلى الوجدانية:

الآيتان 12 - 13 ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ إِذْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَقْمَنُ لِبْنِهِ يَهْوَ بِعُظْمٍ يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾.

المقصد الأول: الشكر على نعمة الحكمة:

إن أوجه ما جاء في مناسبة هذه الآية لما قبلها ما حرره الرازي في مفاتيحه، أن الآيات السابقة تحدثت عن دلائل وحدانية الله تعالى في سننه الكونية، وجاءت هذه لتبين أن هذه الوحدانية ثمرة تتحصل بالحكمة التي رأسها العقل وطريقها العلم والنظر⁽¹⁵⁾.

على أن نظرة أولية في الآية القرآنية تنصح عن أنه تعالى امتن على لقمان بالحكمة ورجاحة العقل وإصابة الحق، وكان مقتضى هذه النعمة الشكر للممتن بها ابتداءً واختصاصه بالحمد، وأن في هذا خيراً يعود على صاحبه، لا ينتفع به أحد سواه، ضرورة أن الله غني حميد.

ولقد صُدِّرت الآية بحرف التحقيق واللام الداخلة عليه؛ لإفادة التوكيد واكتساب الفعل قوة التحقيق والواقع، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وجاء الفعل بنون العظمة للتخيم والتعظيم المتناسب مع فخامة الحكيم وحكمته الموصلة إلى فخامة الغاية وهي التوحيد الخالص.

وإيثار التعبير بفعل الإيتاء على الإعطاء؛ لأن الأول أقوى في إثبات مفعوله مع إفادة التملك بالكلية، ودليله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]، ﴿وَمَا آتَيْنَا الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ [مريم: 12] وهذا يوحى دون أدنى ملايسة بأن الحكمة منة من الله وتفضل ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269] ثم هو أبلغ من «أوتوا» لأنه يقال فيمن كان منه القبول، ومجيئه بصيغة الماضي للدلالة على التحقق والثبوت.

و «الحكمة» هي عين العقل والصواب والفهم والبطانة، وهي المنطق الذي يتعاطى به، ويُنْتَبه به، ويتأمله الناس لذلك⁽¹⁶⁾.

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ وهذه الجملة تفسيرية؛ فمن موجبات الحكمة التوجه بالشكر على هذه المنّة، ولعل هذا سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وذلك لما فيه ما يقوم عليه مدار الأمر من الشكر والامتنان، وقد تكون «أَنْ» مصدرية على تقدير التعليل أي لأنّ تشكر⁽¹⁷⁾.

والشكر يكون مقابل إسداء خير، فالله تعالى ينبه على أن الحكمة الأصلية والعلام الحقيقي هو العمل بهما، وعبادة الله والشكر له «حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر»⁽¹⁸⁾.

وقد جاءت جملة الشرط ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لتحقيق التعلق بين مضمون الشرط ومضمون الجزاء؛ فإن الشرط أدل على ذلك من الإخبار⁽¹⁹⁾.

وما أجمل المناسبة بين الجملتين، فهذا خطاب عام بعد خاص، فقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ خطاب خاص بلقمان، والشرطية قاعدة مقررة وسنة مطردة، ومجيء صيغة الجزاء مطابقة لصيغة شرطها ليتجدد الجزاء ما تجدد الشرط، وسر إظهار الشكر بدل الإضمار لأهميته أولاً ثم للعناية به وأنه ينبغي أن يكرر ثانياً ثم ليكون الثاني نتيجة وثمرة له.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ يلحظ ما يأتي أولاً: الشرطية، ثانياً: الصيغة.

أما الشرطية فمما يلحظها هنا المغايرة بين الشرط وجزائه على خلاف ما كان في الجملة السابقة ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي لم يقل: ومن يكفر فإنما كفره على نفسه، فالمعنى - وا أعلم - ليتناسب مع المعنى القائم في الشرط المعبر عنه بالماضي المقتضي الطرح والتغيب فجاء الجواب ردّاً عليه، فكما أن الكافر استغنى بكفره، كان غنياً عنه، بيد أن محمود بذاته، لا ينقص الكفر من عظمتة وملكوته.

وأما الصيغة فمجيء الفعل بالماضي «كفر» دليل على الاستبعاد والطرح؛ لاستقرار المعنى وثبوته، وفيه إشارة إلى قبح الكفر وتشنيع صورته.

ومجيء الجواب بالاسمية؛ لتقرير غنى ا ، وأن الكفر لا يضير في غنى ا وحده؛ فهو المحمود المستحق للحمد بذاته ولو لم يحمده الحامدون، ومن بديع التنزيل في هذه الجملة وسابقتها، الطباق، إذ الأولى تحمل الاعتراف بالنعمة وهذه تتضمن نكرانها والجحود.

وفي الآية توجيه إلى قيمة عليا، وفضيلة أسمى، وهي الشكر، بدأ بالشكر ثم للآخرين، فالأول اعتراف لما ينبغي أن يقوم بين العبد وربّه من صلة تتمثل في شكر العبد المتصرف بالديمومة، ثم ما بين البشر إسهاماً فيما تقوم به حياتهم على أسس من المودة والتراحم والاعتراف بالجميل، وأسوتنا في غرس هذه الفضيلة رسولنا محمد غ الذي كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فتقول له عائشة: «لِمَ تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»⁽²⁰⁾.

على أن تَمَّة ما يلتفت إليه ها هنا وهو أن شكر العبد لربه يقوم على حاجة العبد على الدوام، وانتفاء الحاجة عن ا تعالى بالكلية؛ إذ إنه تعالى مستغن بذاته عن الشكر والحمد من الغير، بينما شكر البشر لبعضهم يقوم على الحاجة المتبادلة.

ومما يؤكد هذا المعنى ما قاله الفاسمي في هذا المقام « والشكر مبني على خمس قواعد؛ خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره »⁽²¹⁾.

المقصد الثاني: التوحيد والنهي عن الشرك:

﴿وَلِذَٰلِكَ لَقَمْنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾.

هذه الوصية الأولى من وصايا لقمان جاءت حديثاً بنعمة ا عليه ومنته، ليرأى أثرها في ابنه الذي هو فلذة كبده وثمره سعيه؛ حرصاً منه على بناء شخصيته بناء سليماً صالحاً، محوطاً بمنظومة من القيم تحفظ توازنه العقلي والنفسي والأسري والاجتماعي.

وبالنظر في هذه الآية الكريمة أرى أنها أوضحت كمال النظام القرآني، وأكدت حسن التناسب والتلاؤم الذي هو وجه من الإعجاز القرآني؛ فبعد أن وصفت الآية السابقة لقمان بالحكمة، والحكيم لا تعرف حكمته إلا بأقواله وأفعاله؛ عطف هنا بوصيته لابنه، التي تحمل معالم الحكمة ومفرداتها⁽²²⁾.

لقد افتتحت الآية الكريمة بموعظة حملت أعظم قضية وأخطرها إنها عقيدة التوحيد، عقيدة الرسل جميعاً، ورسالتهم إلى أقوامهم، فما من رسول إلا وأمر قومه بالتوحيد ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25] وهذه العقيدة - التوحيد - « تنشئ في القلب والعقل حالة من الانضباط لا تتأرجح معها الصور، ولا تهتز معها القيم ولا يتمتع فيها التصور ولا السلوك »⁽²³⁾.

لذلك كله نرى أن أول ما أراد أن يؤسسه لقمان في حياة ابنه هو التوحيد؛ لأنه أصل ثابت يحميه من عوامل الضعف والقلق النفسي، ويربي فيه عوامل الطمأنينة والاستقرار والشعور الإيجابي الفاعل في الحياة، بكل عزة وإباء، ضرورة أن التوحيد هو أفراد ا تعالى بالألوهية والربوبية والحاكمية والعبودية، فلا يكون عبداً إلا عقيدة ومنهجاً ونظام حياة.

ولقد سلك القرآن الكريم أسلوبًا فريدًا لتثبيت هذه العقيدة في النفس، مختارًا ألفاظًا ونظمًا مؤثرًا؛ بغية الاستجابة وسرعة الامتثال.

وما أبلغ هذه الحكمة حين ترد في لفظ الموعظة التي تحمل في طياتها معاني الخير فيما يرق له القلب ويذكر بالعواقب⁽²⁴⁾.

وهو أرقى أنواع الخطاب؛ إذ خاطب به الأنبياء ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 46] ومقتضاه الإخلاص في التوجيه، والصدق في النية، والإشفاق، والتلطف في القول... كيف لا وهو ابنه - ها هنا - وهو جزؤه، ثم الحرص على اتباع والامتثال.

يقول سيد قطب: « وإنها لعظة غير متهمة، فما يريد الوالد لولده إلا الخير، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحًا »⁽²⁵⁾ بل « يوصي الأب واده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف »⁽²⁶⁾.

وفي لفظ البُتوة إظهار لعلاقة الأبوة، والبُتوة لبيان كمال صدق هذه الموعظة فهي مُبرأة من الخداع والهوى، ومُبرأة من الجهل؛ لأنها وصية حكيم، وهذا السر في إظهار اسم لقمان بدل إضماره؛ لجمع كل أسباب الحكمة والصدق والقبول في هذه الوصية، فهو لقمان الحكيم ولقمان الأب⁽²⁷⁾.

ونداؤه بالبعد (يا) للدلالة على بعد مكانته ومنزلته في نفسه، ثم ليحضر بين يديه بكل ملكاته العقلية والنفسية والجسمية؛ لأهمية ما في حيز الذداء - ولفظ « بُنَي » إنزال الكبير منزلة الصغير، وقد ألقى بطلال المحبة والشفقة، والحنان والقرب الذي ينطوي على الدعوة الخالصة للسمع والامتثال - نظيره ﴿يَبْنِيْ إِيَّايَ أَرَى فِي الْمَنَازِلِ أَتَى أَذِيحَكَ فَأَنْظَرِمَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: 102] والتعبير بالاسمية ﴿وَهُوَ يَعْظُمُ﴾ للدلالة على الثبوت والاستقرار المفيد التعهد بمداومة النصح والوعظ، مع تجدد الانشغال بالإرشاد والإصلاح.

وقد سلب النهي ﴿لَا شَرِيكَ بِاللَّهِ﴾ على المضارع المقتضي الحدوث والتجدد؛ لإفادة كون النهي خارج حدود الزمان والمكان، قال الزركشي ومن فولد النهي « تَخْلُص المضارع للاستقبال »⁽²⁸⁾ على معنى أنه نهى عن أن يقع الأمر مستقبلًا، وحذف مفعول الفعل (تشارك) لينتظم النهي عموم الشركاء، ثم لقطع التفكير عن ذلك بالكلية.

وجملة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليلية للنهي المتقدم حملت في طياتها جملة من المفاهيم والقيم تتمثل فيما يأتي:

أولاً: التقرير بعد النهي - أو خبر بعد إنشاء - يبدأ بالطلب وهو النهي وثنى بالخبر وهو التقرير لبيان دواعيه ومسوغاته، فجاء بالقضية وبرهانها، ثم كان النهي فيما اقتضاه المقام خاصاً بالمخاطب، بينما جاء التقرير عاماً اتصرف بأنه قاعدة ثابتة وسنة مقررة لا تتخاف.

ثانياً: التصدير بحرف التوكيد « إن » ليحمل هذا التقرير من قوة مضمونه وتوكيد مصداقيته ما يفتضيه طرحه والبراءة منه بالكلية.

ثالثاً: إظهار الشرك بدل الإضرار (تشرك، الشرك) للتنبيه على شدة قبحه وبشاعة صورته مما ينبغي تنزهه الخواطر عنه.

رابعاً: الشرك ظلم: واعتبار الشرك ظلماً مع دخول اللام (المرحلة) المؤكدة لمضمون الخبر فيه أمور أهمها:

- اعتداء على حق الله تعالى وغيض منه، وهو المتصرف بصفات الكمال وعلى رأسها الوجدانية، فهو المنزه عن الشرك.
- انتقاص من حق النفس واعتراض على فطرتها.

- تعظيم هذا الظلم وتنوع مفرقاته وتعدد مظاهره بتكثيره وتنوينه أولاً ثم بوصفه (عظيم) ثانياً، وقد أكد هذا رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح⁽²⁹⁾: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال ثلاثاً: الإشراك بالله وعقوق الوالدين ».

وهذا المعنى (الشرك) هو المراد من بيانه غ⁽³⁰⁾ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

ومجيء الفاصلة بالاسمية لإفادة الاستقرار والثبوت ثم لتوكيد حسن التعليل لما تقدم من النهي على أكمل وجه.

وفي ضوء ما تقدم كله فقد تقرر أن من واجب الآباء على أبنائهم غرس مبادئ العقيدة في نفوسهم وتأكيددها، وبخاصة عقيدة التوحيد، التي تقوم على توحيد الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله؛ وذلك لما تحدثه هذه العقيدة من توازن في شخصية الإنسان

على مستوى أبعاده المتعددة، الروحية والعقلية والنفسية والجسمانية؛ فالوحدانية تعني بالضرورة وحدة التوجه، ووحدة الفكر، ووحدة العبادة، ووحدة التوكل والاستعانة... ثم وحدة الغاية والهدف، وعليه فهي الحصانة من الفراق والاضطراب، والوقاية من عوامل الضعف والتردد، والتجاذب والتمزق؛ وبذلك يقوم البناء السليم الإيجابي الفاعل على صعيد الذات والمجتمع والإنسانية.

على أنه ينبغي أن يعلم أن هذه التربية من الأيوين المسلمين ليست منه ولا تفضلاً ولا «أنهما قد تطوعا بشيء، بل واجبهما الطبيعي الذي لا ينتظران من أحد أن ينيهما إليه، فهو البديهية الأولى في حياة الأسرة لا تحتاج إلى تفكير»⁽³¹⁾.

المطلب الثالث: بر الوالدين وحسن التآسي والاقتداء:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَمَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۝ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَلِحْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ مَسِيلَ مَنْ أَقَابَ إِلَى ثَمَرٍ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كَثَرٌ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [لقمان: 14-15].

هاتان الآيتان اعتراض بيديو - للوهلة الأولى - أنه خارج على النسق العام للموضوع، بيد أن المتأمل في ألفاظ الآيتين ودلالاتها، يجد أنها ما بذت عن الموضوع ولا نأت عن السياق؛ فهذا الاعتراض⁽³²⁾ جاء غاية في البلاغة؛ ضرورة أنه خطاب من عند ا تعالى حمل التفاتاً إلى الأبناء يوصيهم بطاعة الوالدين والبر بهما، مع التنبيه على أن هذه الطاعة ليست شرطاً، ولا هي مطلقة في كل أمر، وعليه فقد جاء هذا الخطاب الإلهي غاية في الحكم والإحكام.

ثم إن نظم الآيات ووجه ارتباطها وتناسبها حدد الأولويات في الحقوق والواجبات؛ فقدم حق ا المقتضي توحيد تعال وتزويه عن الشريك، والبر بأحكامه وأوامره، ثم عطف حق الوالدين المقتضي طاعتهم والبر بهما، وما أحسن هذا النظم الذي جاء آية في التناسب والرتابة المنطقية إذ صدر الأمر الأول وهو التوحيد وطاعة ا ؛ لأنه أصل الوجود، ثم ثني بالوالدين لأنهما سبب الوجود، ويتجلى هذا في قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ سُبْحَانَ الَّذِي أَوْلَدَ الْوَلَدِينَ أَحْسَنًا﴾ [النساء: 36]، مع أن هذا النظم طوى معنى آخر - وما أكثر ما ينطوي عليه - وهو أنه في الآية السابقة أكد حرص الوالد على ولده، وهذه جاءت بجزاء هذا الحرص وبما يقابله ويكافئه.

ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن هذه المعاني جاءت في قوالب وأبنية دلت على أن هذا الحديث ليس من عند بشر، بل هو فوق الطاقة البشرية نظاماً وتأليفاً

وموضوعًا، فقوله جل ذكره: ﴿وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ تركيب حقيق بالنظر والتحليل من جهتي مادة الفعل وصيغته وإسناده لنون العظمة ثم لفظ الإنسان ومحل الوصية.

أما مادة الفعل « وصينا » فهي تعني الأمر والعهد مع الحرص على الأداء، إذ الوصية تحمل الأمر تحت مظلة روحانية دينانية وعطية، تصفي القوة والتوكيد والحرص التام على إتيان الفعل، مرتبطًا بالثواب والعقاب، بخلاف الأمر الصريح « أمرنا » ويؤكد هذا استعمال القرآن هذا الفعل في أهم القضايا وأعظمها خطرًا فعلى سبيل المثال ليس للحصر قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِبَيْتِهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ اللَّهَ أَصْلَحُ لَكُمْ أَلَيْسَ فَلَا تُمُونَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132]، وقوله أيضًا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]، وفي باب الحقوق واجبة الرعاية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرَّمَلِ الْإِنثَيْنِ﴾ [النساء: 11] وغير هذا مما يشهد بصدق هذه الحقيقة.

وأما صيغة الماضي فللدلالة على رسوخ هذه القاعدة، وأنها سُنّة ثابتة مستقرة منذ الأزل، صادرة عن المسند إليه المفخم بنون العظمة الذي يستدعي سرعة الامتثال والخضوع والتطبيق الفوري.

ولفظ « الإنسان » دال بعمومه على شمول كل من هو أهل للخطاب من بني البشر، ويدخل فيه المؤمن دخولاً أوليًا، ثم إن البرّ بالوالدين من القيم الصابطة للحياة الإنسانية الحافظة لبقائها وديمومتها في إطار المودة والانسجام.

وإيثار لفظ (بوالديه) على أبويه؛ للتنبيه على المعاناة والمكابدة، وأنهما يتمنيانه ويطلبانه حتى مع المشقة والتضحية والمجاهدة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلاء: 4]، وما أبلغ هذا التعبير الذي كان مدخلًا جميلًا وتمهيدًا حسنًا لقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾.

وفي هذا المقام فإنه يحسن بنا أن ننقل كلام سيد قطب على طوله؛ لأنه يبدع في تصوير العلاقة بين الوالد والولد، تصويرًا حيا موجيًا في الأسلوب والغاية.

يقول سيد قطب: « وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن، وفي وصايا رسول الله ﷺ ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلاً... ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة، كما يريد لها، وإن الوالدين ليدلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور

بما يبذلان ! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة ! فلما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر الموليّ الذهاب في أديار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة ! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وُفِّ عمره عليهما⁽³³⁾.

وحذف مدار الوصية ها هنا أبلغ ويؤكد ما تقدم من الكلام، ثم ليكون عالمًا تذهب فيه النفس كل مذهب لا حد له ولا مقدار. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَتْ عَلَى وَهْنٍ﴾ وتخصيص الأم ها هنا بالحديث لأمر:

أولها: أنها تتحمل النصيب الأوفر وتجدد به في انعطاف أشد وأعرق وأحنى وأرفق..⁽³⁴⁾

ثانيها: أنها هي الأضعف، وبالتالي فهي بحاجة إلى الرفق والإشفاق والعناية والرعاية والطاعة والبر؛ فقلوه: ﴿وَهَتْ عَلَى وَهْنٍ﴾ أي كلما عظم في بطنها زادها ضعفًا على ضعف، وقيل: ضعفًا متتابعًا، ضعف الحمل، وضعف الطلاق وضعف النفاس⁽³⁵⁾.

ثالثها: ما ورد عن رسول الله ﷺ حين سئل عن حسن الصحبة وأحفيته: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أَبُوكَ»⁽³⁶⁾.

قال الفرطبي: «لما خص الله تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، ولأب واحدة»⁽³⁷⁾.

رابعها: ﴿وَهَتْ عَلَى وَهْنٍ﴾ جملة معترضة تعليلية لتوكيد الوصاية؛ لأن تعليل الحكم يفيد توكيده⁽³⁸⁾.

خامسها: أن لها حق الحضانة فهي المربية والمنشئة والمرشدة، ولها القدرة على التحمل والسهرة والمصاحبة، وكل ذلك في مرحلة الطفولة وما بعدها.. وصدق العظيم: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنَاهُمَا كَارِئِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24] ولا يخفى في الآية توكيد واضح لحقها فيما تقدم.

ولكل ما تقدم وغيره كان تخصيص الأم بالذكر، وفي ضوء ما تقرر لو بذل الإنسان كل ما يملك وقدم لها ما يوسعها أن يقدم، ما أوفاهها حقها ولا نصيفه، روى البخاري في الأدب المفرد عن سعيد بن أبي بردة قال سمعت أبي يحدث أنه شهد ابن

عمر رجلاً يمانياً يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره يقول إني لها بغيرها المذلل إن أذعرت ركبها لم أذعر ثم قال لابن عمر أنزلني جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة» (39) أي طلبة عند الوضع.

وفي أجمل ترتيب تختتم الآية الكريمة؛ متمثلاً في الشكر أولاً؛ فهو المنعم المتفضل بالخلق والإيجاد والإيداع ثم الشكر للوالدين؛ لأنهما السبب في الإيجاد، والولد سعيهما وثمرة غراسهما.

وتوجيه الشكر للوالدين بعد التخصيص بذكر الأم لتأكيد استحقاقهما به واشترائهما فيه، ثم لدفع توهم تخصيص الأم بالشكر وتفرد بها به دون الأب.

وما أجمل ربط ما تقدم كله بتلك النهاية التي تمثلها الفاصلة القرآنية ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ ففيه من التذكير والوعظ والتحذير ما يكون داعياً للحمد والشكر، وتقديماً الجار والمجرور لإفادة التخصيص وهو ينطوي على تلويح بوعدٍ ووعدٍ، وعدٍ بالبشارة لمن شكر ووعد بالندارة لمن خالف وتذكر.

﴿وَلَنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 15].

هذه تنتم الوصية الأولى التي كانت التفاتاً إلى الأبناء توصيهم بطاعة الوالدين وبرهما، وجعل ذلك من طاعة الله وشكره ثم التأكيد أن هذه الطاعة - طاعة الوالدين - ليست مطلقة كما تقدم وإنما هي طاعة بما يرضي الله تعالى فلا طاعة لمخلوق في معصية الله (40).

وتؤكد الآية أيضاً دون أدنى ملاينة أن رابطة العقيدة فوق كل رابطة حتى لو كانت أشد الروابط وأعزها؛ رابطة الدم، الأبوة والأمومة التي هي سبب في وجود الإنسان - كما سبق - لأن الله تعالى مالك الوجود وموجده وأسبابه حقيقة.

وإذا كان ذلك كذلك فمهما واصل الوالدان أقصى درجات الضغط المادي والمعنوي بالإغراء والأمني، والإكراه والوعيد، ومهما حاولا استفراغ طاقة التحمل والصبر.. فلا يعد كل ذلك وغيره مبرراً لطاعتهم في الشيء عن عقيدة التوحيد، فالشرك با جريمة لا تغتفر؛ لأنها اعتداء على الله تعالى في ذاته وصفاته وكل ما يجب له ويستحيل عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: 116].

ولقد ضرب الصحابة رضوان الله عليهم مثلاً في الثبات على عقيدة التوحيد، على الرغم مما واجهوه من عوامل الضغط النفسية والمادية، فجاءت موافقهم دليلاً صادقاً وبرهاناً يستحق التأسي والاقتداء.

ورد أن الآية الكريمة ﴿وَلِنْ جَهْدَاكَ﴾ نزلت في سعد بن مالك قال: «كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: «يا قاتل أمه» ففات: لا تفعل يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء فمكنت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكنت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتدت جهدها، فلما رأيت ذلك فات: يا أمه، تعلمين وإني لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت كلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت» (41).

وبالنظر في صيغة التثنية ﴿جَهْدَاكَ﴾ تتراءى دلالة الاتفاق التام بين الوالدين، فهما شريكان في المجاهدة والمدافعة، وأن كلاهما مطاوعٌ للآخر في الدعوة إلى الشرك أسلوباً وغاية، بل إن كل واحد منهما يستقل بوزر الشرك والدعوة إليه وما يسببه ويترتب عليه.

على أنه ينبغي أن يلاحظ هنا أن النفي في قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يراد به «استمرار نفي العلم لا نفي استمراره، فلا يكون الإشراك إلا تقييداً» (42) والمعنى انتفاء العلم بالشريك بالكلية؛ لاستحالة العلم باستحقاق غير الله تعالى بألوهية، قال الزمخشري: «لا تشرك بي ما ليس بشيء يريد الأصنام» (43) وليس نفي استمرارية العلم؛ لأن مقتضاه الوصول إلى العلم بشريك ولو بعد حين، وهذا مستحيل المراد.

﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ بيد أن هذه المجاهدة من الأبوين واتفاقهما على الدعوة إلى الشرك ومخالفة العقيدة؛ لا يسقط ذلك حفيهما في المصاحبة والمعاملة الطيبة والبر والصلة.

ومن لطيف البيان مجيء لفظي «المصاحبة» و«الدنيا»؛ أما المصاحبة فتقتضي الملازمة وطول المكث، وهذا يعني عدم المقاطعة، والتواصل والرحمة والحلم.. لأن ذلك من شيم المروءة، وأما لفظ «الدنيا» فللدلالة على قربها وقصرها وأنها فانية، لا يابيه إليها إذا ما قيست بالآخرة الباقية الخالدة، التي هي في قوله: ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) فبعد أن بين الله طاعة الوالدين لا تكون إلا فيما يرضيه تعالى، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، مع الاحتفاظ بحق الأبوة وتعظيمه

في الحياة، بعد هذا، بين من هو الحقيق بالاتباع، الجدير بأن يكون المثال القدوة والنموذج الأسوة.

قال البغوي عند تفسير هذه الآية ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: «... وهو النبي غ وأصحابه»⁽⁴⁴⁾.

وقال الرازي: «واتبع سبيل النبي عليه الصلاة والسلام بعقلك فإنه مربى عقلك كما أن الوالد مربى جسمك»⁽⁴⁵⁾.

ويلحظ في لفظ الإنابة الرجوع المتكرر مع الإخلاص في التوجه والعمل⁽⁴⁶⁾، وحرف الجر «إلى» يفيد انتهاء الغاية، والمعنى: أن دين أ - الكتاب والسنة - هو المصدر والمنهج الأوجد، والمرجعية النهائية لكل من ابتغى العزة في الدنيا والفوز في الآخرة، ولا ريب أن أسوتنا في هذا وقدوتنا رسول أ غ ثم صحابته رضوان أ عليهم ومن تبعهم بإحسان ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: 21]، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [يوسف: 108]، والحق أن من موحيات الآية الكريمة ضرورة اختيار الصحة؛ لما لها من تأثير في سير حياة الولد، لذلك لا مندوحة أن تأتي هذه في ثنانيا وصايا لقمان، ضرورة أنها من درر الحكم، وكنوز المعرفة، ولا شك أن القرآن الكريم والسنة النبوية اشتملا على التوجيهات والإرشادات في وجوب اختيار الصحة ما فيه الغنية؟ لما لذلك من تأثير في اتجاهات الولد وسلوكه وتصرفاته⁽⁴⁷⁾.

وفي الختام يأتي تأكيد النهاية ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ أي جميعا، من شكر ومن كفر، من وحد ومن أشرك، وتقديم الجار والمجرور لإفادة التخصيص ثم للعناية بهذا الرجوع، وفيه تلويح بالوعد والوعيد أيضًا كما سبق. وجاءت هذه الفاصلة القرآنية ﴿فَأَنبِئْكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ انتصافًا للعدالة الإلهية، فكل مرهون بعمله، فيجازي المؤمن المنيب إليه على إيمانه وإنابته، ويجازي المشرك المتنكب على شركه وكفرانه.

المطلب الرابع: صفة العلم الإلهي وأثارها في السلوك:

ويمثل هذا المطلب الآية (16) ﴿يَبْقَىٰ إِلَهُنَّ إِن كَانَ تَكُ وَثَقَالَ حَبَرٌ مِّنْ خَرَدٍ لِّفَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝﴾.

لا ريب أن هذه الآية تمثل الوصية الثالثة من وصايا لقمان وقد جاءت بعد الاعتراض الفاصل بينهما، واللافت للانتباه؛ نظرًا لقوة محتواه، وعظمة مداره وخطورته.

وقد صُدرت هذه الوصية بما صُدرت به الوصية الأولى، بحرف النداء (يا) للبعد، لبيان شرف النبوة، وبعدها في أعماق النفس وعلو رتبته في نفوس الآباء، مع تأكيد ذلك باللفظ الدال على الحنان والعطف (بني) والرافة، والحرص على الاتباع، والتطلع إلى الاقتداء والتأسي، ولا سيما أن الناصح حكيم لا ينطق إلا بالحكمة.

ثم تأتي هذه الوصية لتقرر صفة من صفات ا تعالى بعد الوجدانية، وهي العلم، لما لها من آثار على النفس الإنسانية وسلوكياتها؛ ضرورة أنها تستوجب إحصار سجل أعمال الإنسان - الذي هو مرهون به - بناء على علم مطلق دقيق، لا تخفى عليه خافية، وميزان فسط لا يظلم ﴿وَصَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

وفي ضوء هذه الحقيقة التي لا تقبل الجدل فإن علم ا تعالى محيط بكل شيء في الأرض وفي السماء، كَبَرُ أَمِ صَغُرُ، ولو كان مثقال حبة من خردل بل لو كان مثقال ذرة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5]، ثم الإحاطة بما هو ظاهر وباطن، حتى المخبوء في جسم كثيف صلب أو في الأرض أو في السماء، بل حتى المطوي في مكثونات النفس مما لا يدرك بالة ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5 - 7] والتقنية بالضمير عن الحسنة والسيئة ﴿إِنَّمَا﴾ للدلالة على العموم، ولتذهب فيه النفس كل مذهب، واتصال ضمير الشأن بحرف التوكيد للدلالة على عظم ما بعده والتنشويق لمعرفته، وتوكيد ما في حيزه، وتقرير وصف ا تعالى بالعلم المطلق المحيط بجزئيات الموجودات وكليلاتها.

والبدء بالصخرة التي هي غاية في الصغر إذا ما قيست بالأرض للتدرج من الأصغر إلى الأكبر، ومن الأضيق إلى الأوسع، ومما هو في دائرة إدراك البصر إلى ما هو أبعد مما يُحَدِّد، ثم للدلالة على عموم الأمكنة في جميع الأزمنة.

والتصدير بالشرطية ﴿إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ لتحمل صفة القوة في التنجيز بعد التوكيد في الإحاطة.

والتعبير بالإتيان ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ فيه مسألتان: مادة الفعل وصيغته؛ أما مادة الفعل المستعملة في المعاني خاصة ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1] وإيثارها على ما يستعمل في الأعيان ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: 20] فلإفادة القطع بالمجيء على وجه الحقيقة والواقع، وهذا غاية في البلاغة.

وأما صيغة الفعل، فالمضارع يفيد التجدد والحدوث.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ اسمية أفادت الثبوت والاستقرار، وقد جاءت مفصلة عما تقدمها ولم تعطف؛ «لأنها كالنتيجة للسابق فهي قاعدة أو مبدأ كلي جيء به بعد فريضة من فروعها»⁽⁴⁸⁾.

والفاصلة باللاطف والخبرة جاءت متناغمة مع سياقها متناسبة وموضوعها؛ فقد حملت الدلالة على وصول علمه تعالى إلى كل خفي مهما دقت صنعه وكان مخبوءاً، كما أن الخبرة تقتضي العلم بخفايا الصنعة والاطلاع على أسرارها وخباياها ودقائق خفاياها، وفيه من القدرة على الإتيان ما فيه!!.

وفي ضوء ما تقدم فإنه يتحصل جملة من المثل والقيم والثوابت أهمها:

أولاً: تنمية روح المراقبة الذاتية المرتكزة إلى صفة العلم المطلق التي تستدعي تربية النفس، وضبط تصرفاتها في السر والعلن ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مُعْزِزُهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِيَّامَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7].

ثانياً: إيجاد ملكة المحاسبة، والمبادأة بالنقد الإيجابي للذات، وهي درجة متقدمة في الإيمان، أقسم ا بال نفس التي تحملها لعظيم شأنها فقال: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الزَّوَامَةَ﴾ [القيامة: 2].

ثالثاً: بناء الشخصية المتوازنة، المتميزة في إخلاصها وولائها تعالى، الملزمة بكل ما يحفظ من العثار وتجاوز القيم، والتعدي على الأخلاق والثوابت، فاستشعار صفة العلم هو الوفاية للإنسان من الزلل والخطأ في توجهاته وسلوكياته.

وفي ظل هذه الموعظة يكون لقمان قد غرس في ولده قيمة المراقبة الذاتية والمحاسبة النفسية، المتولدة من تقوى ا عز وجل ومراقبته في السر والعلن، والحفاطة للنفس في جميع أوقاتها وأماكنها، الفاعلة لكل ما هو خير، المتبعة لكل ما هو إيجابي.

ولعمري فهذه الشخصية الإنسانية المؤمنة، الصالحة، التي نشدها رسول ا غ ، وتطلع إلى بنائها وحرص على دوامها وبقيائها، ويتجلى هذا في قوله: «أتق ا حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»⁽⁴⁹⁾، وقوله: «اعبد ا كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»⁽⁵⁰⁾.

المطلب الخامس: مراتب العبودية ومقتضياتها.. وأثار ذلك في الدعوة:

ويمثل هذا المطلب الآية رقم (17): ﴿يَبْتَغِ أَفْرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا مَعْرُوفٍ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

إنه لمن الغاية في الحقيقة، والنهائية في البيان؛ أن تلتقي هذه الوصية، وما يبنى عليها، بعد أهم ركن من أركان العقيدة وهو الإيمان بها، وبصفاته العلا وعلى رأسها الوجدانية، إنها تحجب بأهم ركن من أركان الدين، وعماده وهو الصلاة، الذي ما جاء الأمر به في هذا المقام إلا ليكون قاعدة أمينة، وأصلاً مكيناً تنهض عليه التكاليف الدعوية، وما تحمله من ابتلاءات تستدعي الطاقة والمقدرة على المداومة والثبات والصبر والتحمل، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّرْبِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ (١٥٧) [البقرة: 153 - 157].

وإذا كانت الصلاة مصدر استمداد الطاقة والقدرة على الثبات والصبر والتضحية؛ فهي ضابط النفس، وحصنه، وداعيه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿أَتْلُمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِرَبِّكَ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45].

وفي ضوء هذه الحقيقة يكون لقمان قد وصى ابنه بأهم قضيتين:

الأولى: وتتمثل في أصول العقيدة من الإيمان بها وصفاته.

والثانية: العمل والتطبيق وفقاً لمقتضيات ذلك الإيمان... (51).

ومن حسن البيان هنا أن لقمان الحكيم لا يميل من أن ينادي ولده بـ ﴿يَبْتَغِ﴾ وذلك للتوكيد على أنه جزؤه، ولبيان حنوه عليه، وحرصه على وجوده ومستقبله ونهايته، لقد ناداه بهذا النداء في دعوته للوجدانية، وفي دعوته لإيجاد ملكة المراقبة الذاتية استشعاراً منه لصفة العلم والعدل الإلهي، ثم ناداه ها هنا ليملك ذاته وحرية في ظل التعبير الأسمى عن عبوديته عز وجل، وليدرك من خلال هذه العبادة غاية وجوده، وضابط تصرفاته، ومعيار قبول أعماله أو ردها بالكلية فـ «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر» (52).

ولإدراك جوانب هذه الوصية ومعرفة مظاهرها وأبعادها لا مندوحة من الوقوف على نظمها الذي يحمل صوراً من الإعجاز البياني يحفظ تدفق معانيها، وديمومة أدائها وتأثيرها.

لقد افتتحت هذه الوصية بالإنشاء؛ نداء وأمر، أما النداء - فبالإضافة إلى ما تقدم ذكره سابقاً - يعني طلاب إقبال المنادى ومثوله بين يدي المنادي، واستحضار جميع ملكاته العقلية والنفسية والحسية، والإصغاء بالكلية؛ لأهمية ما في حيز النداء، وأما الأمر الذي مقتضاه الإتيان على وجه الإلزام والوجوب؛ فلعظمة ما يترتب عليه من قضايا، وخطورته مما يعود على المكاف والمشرع، فللمكاف: ظهور وتركيز واستقامة وهداية، ونور وحجة وبرهان...، وللمشرع صدق هذا التشريع وفاعليته، وقدرته التأثيرية في النفس والسلوك والواقع.. وهذا مطلوب من المكاف إنباته، وإلا غدت الصلاة حجة عليه لا حجة له.

ولتحقيق ما تقدم وتوكيده يلفت القرآن الكريم النظر لصيغة الفعل ومادته؛ فصيغة الفعل (قام) على اختلاف تقاليبها ومشتقاتها تعني بالضرورة الأداء على الوجه الأكمل وجوباً حقيقياً، لا شكلاً ولا ظاهراً حتى تؤدي وظيفتها - كما تقدم - فتارة يأتي الفعل (ماضيًا) لإفادة الثبات، وتارة يأتي (بالمضارع) لإفادة تجدد الأمر به والمداومة عليه، واستحضار أثره، وتارة يأتي باسم الفاعل (مقيم) (قائم) للدلالة على رسوخ الصفة.. وغير ذلك مما يقتضيه المقام.

وأما المادة فهي من « قام » أثرها على غيرها مثل « الأداء » لتحقيق كامل العناية والرعاية بالأركان، والواجبات، والسنن والآداب، لتحقيق غايتها، وبعم أثرها وخيرها فيما يحسن شرعاً وعقلاً، وهذا المعنى مأخوذ من « قامت السوق » - سوق البضاعة - إذا نفذت بضاعتها ولا تنفذ بضاعة السوق إلا إذا كانت جيدة مقبولة، وكذا الصلاة فلا تكون مقبولة تؤتي ثمارها إلا إذا جاءت تامة بأركانها وواجباتها وسننها...

أو أن القيام مأخوذ من قولهم: « قامت السوق » - سوق النبات - إذا اعتدلت واستقامت، وكذا الصلاة، لا تقام إلا إذا كانت موضع رعاية وعناية بكل مقتضياتها.

ولا أودها هنا في هذا المقام - الذي لا يتسع - أن أتوسع في موضوع الصلاة.. لكن يكفي القول إنها ركن الإسلام الأول بعد الشهادتين وهي الفاصل بين المؤمن وغيره - وهي صلة العبد بربه من غير واسطة، ثم هي العبادة العينية المتفردة التي لا تحد بزمان ولا مكان، ولا تسقط عن المكاف بحال⁽⁵³⁾، حتى في أخرج الأوقات

وأضيفها - القتال - ومما هو حقيق بالبيان هنا - في هذه الوصية - أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توسط بين الأمر بالصلاة والأمر بالصبر، وما كان ذلك - وأعلم - إلا لبناء القاعدة الموطدة للنفس على تحمل ما يمكن أن يلاقه الإنسان في سبيل دعوته وغير ذلك من الابتلاءات... وما فرضت الصلاة في « مكة » مع أنها من الأحكام، إلا من أجل الاتصال - يا - بتلك القوة التي لا تنفهر، واستمداد الطاقة القادرة على الثبات والصبر والتحمل في جهاد الدعوة، هذا أولاً.

وثانياً: توطين للنفس وتهئية لها بأن طريق الدعوة إلى الله مليئة بالأشواق، محفوفة بالمكاره والمصاعب، وقد يتساقط الشهداء على جنباتها ليشكلوا معالم هادية، وشواخص مضيئة منبهة.

ومما لا ريب فيه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثمرة من ثمار العقيدة، وأصل في صلاح الفرد والمجتمع والإنسانية، ضرورة أنه يحيي جذوة الإيمان بأوصافه... فبينه كوامن النفس لاستنهاض القيم والمثل العليا والتمسك بالفضائل ومحاسن الأخلاق، ثم يؤكد الابتعاد عن كل مسالك الرذيلة والفساد، فيغدو المجتمع فاضلاً محفوظاً بمنظومة من القيم والمثل والفضائل تحت مظلة العبودية وحده، وهذا مما ينبغي أن يكون لسان حال المؤمن ومقاله ودينه وطبعه، وهذا ما نشده لقمان في ابنه بكل ثقة وإيجابية.

ولقد وُصِفَتْ هذه الأمة بالخيرية وتميزت بها لأنها تفردت بهذه الخصلة على غيرها من الأمم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذُوُّوْنَ يَللّٰهِ﴾ [آل عمران: 110].

وغني عن البيان أن الأمر انصب ابتداء على تضمين المفاهيم الإيجابية والفضيلة والتمسك بالقيم وبكل ما حض عليه الشرع ووافقه، وهذا أسلوب دعوي يمكن الاستغناء به في كثير من الأحيان عن ضده وهو (الذارة) أو النهي عن المنكر، فتعميق مفاهيم الخير والبر في النفس تكفيها في الإقلاع عن الباطل والشر، إلا إذا احتيج إليه، فجاء الترتيب على أحسن نسق وأبلغه، على حد بشروا ولا تنفروا، والترغيب بالجنة أولى من الترهيب بالنار، ولكل مقام مقال.

وقوله: ﴿وَاصِرٌ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ توطين للنفس بأن الحياة لا تسير على نسق واحد؛ فقد يعرض للإنسان ما يشق عليه في نفسه وماله وولده، ومبادئه وقيمه، ودل الفعل على الاستقبال لتأكيد استحضاره ووجوده كلما كانت دواعيه ومقتضياته.

وفي قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ تهوين للمصاب أولاً، وتسلية للنفس بما في ذلك من لطف الإله ورحمته.. على شدته وقسوته، ثم يحمل تنبيهاً على عقيدة القدر التي تعني الرضا والتسليم وعدم الاعتراض أو التبرم على الحكم الإلهي، وهذا فيه ما فيه من الأمن النفسي والأجر، والثواب الآخروي.

وجاءت الفاصلة القرآنية لِنُحَكِّمَ هذا الموضوع وتُعَلِّقَهُ على أكمل وجه وأبلغه؛ فعبّر بالاسمية لتوكيد ثبات هذه القيمة ورسوخها في النفس؛ ضرورة أنها من مقومات الحياة، وأصول ثوابتها وتوازنها.

واختيرت ألفاظها ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ لأن المقام مقام نصح وتوجيه وإرشاد، بينما جاءت هذه الألفاظ بصيغ أخرى في مقام حصول المكروه وتحققه واقعاً ﴿وَكُنْ صَبْرًا وَعَقْرًا﴾ [الشورى: 43].

وتتجلى بلاغة الفاصلة أيضاً في الإسناد المجازي الذي علاقته المفعولية أو الفاعلية؛ وكأنه لما كان الصبر في الأمور سجيةً وطبيعاً تمثل هذا في الأمور ذاتها وكأنها الفاعل لهذا الصبر.

على أن لفظ (العزم) يشير دون أدنى ملابسة إلى القوة والصبر والتحمل، والهمة والارتقاء إلى مستوى الحدث والمهمة، والتعبير (بالأمور) الذي هو جمع الأمر يشعر بأن هذا يكون في عظمم الأمور وأهوالها وفي أشد النوازل وأصعبها ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَكَانَ الْنُّزُورُ﴾ [هود: 40]، ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1]، ولعل (من) التي قد تفيد البعضية توجي بالارتقاء بالنفس، والتعالي بها صعوداً إلى أعلى مراتب الصبر ودرجات التحمل - على معنى أن هذا الصبر من التحمل فعلى النفس التطلع إلى ما هو أعلى وأعلى.

المطلب السادس: أسس بناء الشخصية وضوابطها الأخلاقية:

ويمثل هذا المطلب الآيتان رقم (18 - 19): ﴿وَلَا تَصْبِرْ خَذَلًا لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) [لقمان: 18 - 19].

هذه آخر آيات وصايا لقمان الحكيم، آخر لبنة في هذا البناء المشيد، الذي أقمه على عقيدة التوحيد التي تقتضي توازن الشخصية واعتدالها، مروراً بالفاعلية الإيجابية

في البناء الأسري، المتمثل في الإحسان إلى الوالدين والبر بهما، ثم القيام بأسمى مظاهر العبودية - الصلاة - الداعي إلى حرية الإرادة، وتحرير النفس من الخضوع والاستسلام إلا عز في علاه، ثم تحمل المسؤولية الفردية الممتدة عبر المجتمع الذي تنهض تبعه هدايته على عاتق الدعاة الذين اتصفوا بما يجعلهم أئمة الهدى وأعلام الهداية، وما يستدعيه هذا من طاقة ومقدرة على التحمل والصبر، وهكذا أرى لقمان الحكيم - ومن خلال آخر آيتين في وصيته لابنه يحكم حلقات ذلك البناء إحصاءاً يحمل في طياته ما ينبغي أن يتحلى به من صفات، وما يسلكه من أساليب وطرائق؛ يتطلع إلى تحقيق ما ينشده في ابنه من مسؤولية دينية واجتماعية وإنسانية.

ولتجسيد تلك المعاني وتحقيقها، وما يكسبها قوة الاتباع والامتثال أرى ضرورة التوقف عند النظم الذي يحمل تلك القضايا وينطوي عليها.

ولعل أظهر ما يقال في المناسبة بين هذه الوصية وما قبلها؛ أنه لما أوصى ابنه بالصبر والتحمل والتسليم بالقدر والرضا بالقضاء عند حلول المصيبة ونزول البلاء، وهذا فيه ما فيه من الانتصار على النفس، ونكران الذات، أردف بالتواضع، وإلانة الجانب، وخفض الجناح، والتجمل بكل ما يحقق هدف الدعوة ولزوم الاقتداء بالادعية، بعيداً عن التعالي والاستكبار.

وما مجيء الاستعارة في النهي ﴿وَلَا تُصَغِّرْكَ﴾ التي هي غاية في البلاغة وحسن البيان؛ إلا تحقيقاً لتلك المعاني، فالتصغير داء يصيب الإبل فتلاوي أعناقها، وعليه فالقرآن يربأ بالإنسان المؤمن - فضلاً على أن يكون داعية - أن يكون مريضاً بداء التعالي والكبرياء؛ لأن هذا مدعاة إلى النفور والتجافي والابتعاد، بل عليه أن يتحلى بالرفق واللين، وخفض الجناح، وسعة الصدر والحكمة في القول، وهذه وصية القرآن الكريم للأنبياء، فوصية لموسى وهارون تنطق بهذه الحقيقة ﴿أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَاهُ قَوْلًا لِّنَا لَعْلَهُ يَنْدَكُرَ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه: 43 - 44] ثم هي وصيته تعالى لرسولنا محمد غ: ﴿فِيمَا رَحِمْتُمْ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْدَكُرُوا يَكُنْ لَكُمْ قَسْرٌ فَظًا عَلَیْكَ الْقَلْبُ لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَسَاوِهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، وقوله: ﴿وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ [الشعراء: 215] وتخصيص الخد تحديداً؛ لأن مصاعرته هي هيئة تنم عن الاستخفاف والاحتقار في غالب الأحيان⁽⁵⁴⁾، ولفظ «الناس» دال على تعلق النهي بعموم الناس من غير تخصيص، وأن هذه الخصلة منهى عنها بالكلية؛ لقباحتها ورذالتها.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾

هذا نهى آخر، فبعد أن نهى عن التعالي والاستكبار والاستخفاف بالناس، نهى عن الخيلاء والتفاخر، قال ابن كثير: «أي: خيلاء متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغيضك ا»⁽⁵⁵⁾، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37].

وأما ما كان إعراب «مرحًا» حالاً أم مفعولاً له، فقد انصب النهي عليه؛ لأنه هو الغاية وليس المشي، وعليه فهو تمثيل كنائي عن النهي عن الكبر والتفاخر⁽⁵⁶⁾ والمشي مرحًا «حركة كريهة يمتقها ا ويمقتها الخلق، وهي تعبير عن شعور مريض بالذات، يتنفس في مشية الخيلاء»⁽⁵⁷⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورًا﴾ تعليل للنهي السابق وتأكيد له، جاء غاية في المقت والبلغص لهذين الصنفين من الناس، كما أن الفاصلة القرآنية جاءت غاية في المطابقة والمناسبة؛ «فالمختال: مقابل للماشي مرحًا، وكذلك الفخور المصعر خده كبيرًا»⁽⁵⁸⁾.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمُخِيرِ﴾

هذه الآية تنمة لمفردات تلك الوصية التي رامت أن تتصرف بها الشخصية المؤمنة المتوازنة، المتأدبة بقواعد الآداب والسلوك، والمتحلية بالقيم والمثل العليا، وما تنفرد به حتى في مظهرها وسمتها العام.

لقد تقدم نهيان اقتضيا حسن التعامل مع الناس، والتأدب معهم، والتواضع لهم وإلانة الجانب، وهذا أمر نفسي، ويقابلها ها هنا أمران اقتضيا التأدب في المظهر العام، في الحركة والسلوك والسير، ولغة الخطاب، وهذا أمر سلوكي، وبذلك يكون لقمان قد نبه ابنه إلى التحلي بالآداب النفسية والسلوكية، وبه يتحقق البناء التربوي في الجوهر والمظهر على أتم وجه من التواؤم والانسجام بين الذات والسلوك.

إن هذا الأدب ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ يتطلب تميز الشخصية المؤمنة والتفرد عن غيرها، بالهدوء، والتؤدة والاعتدال في المشي والتصرف؛ لأن هذا السلوك - في غير تفريط - يضيف على النفس هيبة ووقارًا، وقبولاً، كما أن سرعة المشي - في غير حاجة - تذهب ذلك كله.

وهكذا نرى لقمان الحكيم يرشد ابنه ويوصيه، بأن يتمثل صفات من تميزوا بأحقية انتظامهم في سلك عباد الرحمن، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63].

وتوكيدًا لما تقدم كله فإن رسولنا محمدًا ﷺ أرشدنا إلى أن نلزم الهُويَّ، والمشي في هدوء ووقار، حتى ونحن في طريقنا إلى القيام بأسمى مظهر تعبدى وأوجه وهو الصلاة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا» (59).

وقد جاء عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كان إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع» والمراد بالإسراع ما هو فوق التماوت؛ لأنه رضي الله عنه قال لرجل متماوت: «لا تمت علينا ديننا أماتك الله» (60).

أما الأمر الثاني: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ يعني خفض الصوت عند الحديث، ويمثل أدب الكلام - ولكل مقام مقال - والتحدث بصوت مسموع معتدل، موضح للمراد من غير تكلف وفي غير جدة ولا أنفة، وهذا أدب عام أمر الله تعالى به أصحاب رسول الله ﷺ والمؤمنين عامة التأدب بين يدي رسول الله ﷺ وعدم رفع الصوت والتواضع فيه أمام حضرته، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2].

والتوسط في الكلام وعدم الجهر به ورفع مظهر مطلوب حتى في الصلاة التي هي أسمى عبادة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتُمْهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110] ولأثر الكلام وتأثيره كان هذا التوجيه العام، ذلك لأن خفض الكلام والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس وارتقاء بها، واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته، ورفع الصوت أثناء الحديث - في غير حاجة - ضعف وسوء أدب وتغطية على كثير من المغالطات والفشل (61)، فضلاً على أن هذا الأسلوب يتنافى مع الذوق العام.

ومن لطيف البيان هنا ما يؤكد هذه الحقائق:

فأولاً: التعبدية بالطرفية في المشي، لإفادة تحفيق الوقوع، والممارسة والتطبيق، وأن يكون ذلك سَمْتًا عامًا، والتعبدية بـ «من» في الصوت، والتي تفيد البعضية، لاستحالة خفضه وإخفائه بالكلية، ولزوم الرفع أحيانًا، فقد يحتاج إلى الجهر، فقد جاء

في الحديث: « كان رسول الله ﷺ إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش... » (62).

ثانيًا: الجمع بين المشي والصوت، وذلك لأنهما وسائل الإنسان وأدواته لتحصيل مطلوبه (63).

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾

وفي هذا النص القرآني من جمال التعبير وحسن البيان، وما ينطوي عليه من قيم؛ مما هو حقيق بالتوقف والنظر - ويظهر فيما يأتي - الفصل بكمال الانقطاع، الاستعارة بالتشبيه، وتوكيد الصورة، واختيار الألفاظ وصيغها:

الأول: الفصل بكمال الانقطاع، فالجملة الأولى إنشائية ﴿وَأَقْصَىٰ فِي مَشْيِكَ وَأَعْلَىٰ فِي صَوْتِكَ﴾ وهذه خبرية، وفصل هنا بغية الالتفات إلى أمر هام والتنبيه عليه، وهو ما يترتب على ما تقدم من التشبيه مما يحمله من الصورة المنفرة الموحشة التي يترفع عنها كل عاقل.

الثاني: الاستعارة، شبه رفع الصوت في غير ما حاجة، بصوت الحمار، وبلاغة الاستعارة تمثيل الصوت بالنهاق الذي أوله زفير وآخره شهيق، وفيه من التحقير والازدراء ما فيه (64)، فضلاً على التنفير منه وتحاشيه.

وفي هذا التشبيه إشارة إلى أن الصوت العالي من غير مقتضى يتنافى مع الذوق والحس والأدب العام.

ثالثًا: جاء توكيد هذه الصورة الموحشة المنفرة المنهي عنها، بالاسمية ثم باللام المزحلقة.

رابعًا: والسؤال الذي ينبهض ها هنا، لماذا كان التشبيه بصوت الحمار من بين الحيوانات الأخرى؟ ولماذا أفرد الصوت وجمع الحمار؟ ثم ما معنى أن يأتي لفظ « أنكر » على صيغة أفعّل؟

أما التشبيه بصوت الحمار؟ فمبالغة في الذم والتهجين، وإفراط في التشبث عن رفع الصوت والترغيب عنه، وتنبيه على أنه من كراهة أ بمكان؛ فالحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه، وقد عُذ في مساوي الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة (65).

وأما توحيد « الصوت » وجمع « الحمار » فيجب عنه الزمخشري أيضًا بقوله: « ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب تويده »⁽⁶⁶⁾.

وأما مجيء اللفظ « أنكر » على وزن « أفعل » فيه معنى لطيف على حد قول الرازي: « وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح، ولو قتل لا يصيح، وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق، فصوته منكور »⁽⁶⁷⁾.

هذا ولشدة نكارة صوت الحمار أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعوذ بها من الشيطان إذا سمعنا صوت الحمار فقال: « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً »⁽⁶⁸⁾.

وفي رواية « إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمار من الليل فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم فإنه ترى ما لا ترون »⁽⁶⁹⁾.

وفي ضوء ما تقدم فإن هذه الآيات التي تمثل هذه الوصية تعليم وتربية وتأديب في الظاهر والباطن في النفس والسلوك وفي المشي والمظهر العام... وفي النطق وأدب الكلام.

الخاتمة:

وبعد: فهذه جولة في رياض آيات وصايا لقمان الحكيم من سورة لقمان تنسّم عبير أزهارها، وعبق أزاهيرها، ولم تقطف يداي ثمراتها؛ لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

لقد أبصرت غناها بالحكم والمثل والقيم، وثراءها بالدرر والفوائد والفرائد، بأسلوب بياني أخذ، حمل في طياته معاني ومرامي أبانت عن تطلع الأب الحاني والوالد الحريص إلى بناء شخصية ولده بما يحفظ ذاته في كل أبعادها بتوازن وإيجابية، وأن يكون معلمًا منيرًا دائم الهداية، معطاءً، حسن الأسوة والافتداء.

وفي ضوء هذه الحقيقة التي تتجسد في هذه الوصايا أرى أن أسجل النقاط الآتية:

◀ إن القرآن الكريم هو أعلى طبقات البلاغة، وهو الحكمة، مصدرها ومنبعها، ومعجم أئمة حكمائها - الأنبياء والصالحين - وهو الهادي إلى معالم الحكم والأمر بالتأسي بالحكماء، والالتزام بحكمهم.

◀ قدمت الآيات الكريمة - وصايا لقمان - تعريفاً بالمثال النموذج العارف با ، الخير المجرب، الذي نال الحكمة بصلاحه وإخلاصه، وتمثلات في أفعاله وأقواله، فكان حقيقاً بما يؤهله لنصح غيره بالحكمة، والعمل بمقتضاها، وقد تجسدت فيه الحكمة الفائلة:

أدب النفس واستكمل جوانبها فأذت بالنفس لا بالجسم إنساناً
« أدب نفسك قبل أن تؤدب غيرك »

◀ مثلات الحكم التي تضمنتها وصايا لقمان منظومة من الثوابت والقيم؛ الهادفة لبناء الإنسان الصالح والموصولة لسعادته في حياته وأخرته.

◀ ارتقت هذه الوصايا ببناء عقيدة التوحيد أولاً، التي هي عين الحكمة؛ فهي قاعدة الشخصية المتوازنة في أبعادها الروح، العقل، العاطفة، الجسد، وأصل وحدة الفكر والاتجاه والسلوك.

◀ رَتَبَتُ الأولويات في النصح والإرشاد، فبعد الأمر بعقيدة التوحيد في الذات والصفات... انتقلت إلى العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك والدعوة، ثم الإحسان إلى الوالدين؛ ضرورة أن ا واجب الوجود وموجد كل موجود، ثم الوالدين؛ لأنهما سبب الوجود، مع التركيز على البر بالوالدة لما لها من عظيم الفضل، وما تحمّلته من معاناة في المراحل المختلفة حملاً وطفولةً وبيعاً وشباباً.. وطول المكابدة والمصابرة.

◀ كشفت الوصايا عن وجوب قيام العلاقة الحميمة بين الأب وولده، ومدى حرصه على سعادة ابنه ولا سيما أنه امتداد له، كل ذلك في طلال الصفات المتمثلة في الحنان والشفقة والعطف والرحمة، يا بني...

◀ حسن التأسي والافتداء بالتزام المنهج الصحيح قولاً وعملاً، واتباع الأصالح والأئقى ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ متمثلاً ذلك في رسول ا غ ابتداءً، ثم في

الصحية رضواناً عليهم والتابعين بإحسان، ثم اختيار الصحة الصالحة والرفقة الطيبة لما لها من تأثير في النفس والميول والسلوك والاتجاهات.

◀ إيجاد ملكة الرقابة الإلهية، والمحاسبة الذاتية، المستوحاة من صفة العلم الإلهي ﴿إِنَّمَا إِنَّكَ وَمَثَالُ حَبْرٍ مِّنْ حَرْدٍ لِّفَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾ مع تركية النفس اللوامة، التي تستدعي ضبط النفس، وتجميلها بالقيم والمثل، وامتداد آثارها الإيجابية في المجتمع والإنسانية.

◀ بيان أرقى مراتب العبودية والأمر بها ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وأثار ذلك في الدعوة إلى الصبر، وما تقتضيه من عزم وإرادة، وما تستدعيه من طاقة وقدره على التحمل والصبر، مع التسليم بقدر الإمكان وقضائه، والرضا من غير تبرم، وفي هذا من تربية الإرادة والقوة ما يكفل النهوض بمسؤولية الدعوة وتبعتها.

◀ ضرورة الالتزام بتحسين النفس بكل ما يحفظها في جوهرها ومظهرها في الحركة والسلوك وفي الهيئة العامة، ثم في الحديث ودواعي الكلام ومسوغات الإفهام.

◀ مجيء الفواصل القرآنية غاية في البلاغة بربط مقاصد الآيات ومعانيها وما تنهض به من وصايا وإرشادات بعللها، والمقدمات بنتائجها فكانت آية في حسن البيان والإحكام:

- يا بني لا تشرك با .. إن الشرك لظلم عظيم
- إن تك مثقال حبة .. إن ا لطيف خبير
- أقم الصلاة .. واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور
- ولا تصعر خدك .. إن ا لا يحب كل مختار فخور
- واقصد في مشيك ... إن أنكر الأصوات لصوت الحمير

◀ التنوع في أساليب التربية بين التوجيه المباشر، بالطلب: لا تشرك، أقم، وأمر بالمعروف. وضرب المثل: إنها إن تك مثقال حبة. والاستعارة والكنية، ولا تصعر خدك، ولا تمش... مَرَحًا. والتشبيه: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير.

◀ ترايط الموضوع وانسجام فقراته المختلفة، ثم مناسبة الحكم لبعضها على اعتبار أنها وحدة متكاملة لبناء شخصية متكاملة، تبيّن مدى ارتقاء الولد بارتقاء والده به، وأن كل ما يصبو إليه وينشده تراءى في تربية الحكمة وحكمة التربية.

هوامش البحث:

- (1) ينظر: محمد خير رمضان، لقمان الحكيم، ص 57 فما بعدها.
- (2) البغوي، معالم التنزيل 238/4، الزمخشري، الكشف 10/5، ابن كثير، البداية والنهاية 96/2، 97، الألوسي، روح المعاني 82/11.
- (3) ابن كثير، البداية والنهاية 96/2، 97.
- (4) البغوي، معالم التنزيل 238/4.
- (5) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية 96/2 فما بعدها، حفي، روح البيان 48/3، محمد خير رمضان، لقمان الحكيم 84 فما بعدها.
- (6) ابن فارس، معجم مفاتيح اللغة 91/2.
- (7) ابن منظور، لسان العرب، مادة (حكم) 140/2.
- (8) الزبيدي، تاج العروس، مادة (حكم) 161/16.
- (9) الغزالي، ميزان العمل، ص 67، 99، 107.
- (10) البغوي، معالم التنزيل 219/1، الزمخشري، الكشف 476/1.
- (11) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 644/1.
- (12) الحديث: رواه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب: إنفاق المال في حقه، رقم (1343) 510/2.
- (13) الآيتان هما: الآية (4) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ والآية (27) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَكَلَهُمُ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحٍ مَا تُفِيدَتْ كُلُّهَا إِلَّا أَنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ينظر: الألوسي، روح المعاني 98/12، د. عباس، إتيقان البرهان 391/1.
- (14) التقسيم على هذا النسق مستفاد من: قطب/ في ظلال القرآن 2782/5 - 2783.
- (15) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب 118/9.
- (16) الراغب الأصفهاني، المفردات ص 61.

- (17) ينظر: أبو حيان، البحر المحيط 181/7، ينظر تعريفات الحكمة في التمهيد من هذا البحث.
- (18) ينظر: الزمخشري، الكشاف 11/5، ابن عطية، المحرر الوجيز 491/11.
- (19) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير 152/21.
- (20) الحديث: رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، كتاب التفسير، باب: « ليغفر لك الله » رقم 4836، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري 558/9.
- (21) الفاسمي، محاسن التأويل 197/13، وينظر: رمضان يوسف، لقمان الحكيم ص 144.
- (22) ينظر: البقاعي، نظم الدرر 13/6.
- (23) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ص 201.
- (24) ينظر: الراغب، المفردات ص 876، والمعجم الوسيط ص 1043.
- (25) سيد قطب، الطلال 2788/5.
- (26) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 600/3.
- (27) ينظر: حنان لحام، أضواء على سورة لقمان ص 47.
- (28) الزركشي، البرهان 381/4.
- (29) رواه البخاري في صحيحه عن أبي بكرة عن أبيه رقم (5976) كتاب: الأدب، باب: عقوق الوالدين من الكبائر، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري 9/12.
- (30) ينظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: « ولم يلبسوا إيمانهم بظلام » لما نزلت « ولم يلبسوا إيمانهم بظلام » قال أصحابه غ : وأينا لم يظلم ؟ فنزلت « إن الشراك لظلم عظيم » 180 / 9.
- (31) محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام ص 13.
- (32) هذا الكلام تعالى وليس للقمان، وقيل: فإله عز وجل له، وكأنه قيل: قلنا له « اشكر » وقلنا له: « ووصينا الإنسان » والمعنى وأمرنا الإنسان برعاية والديه. ينظر: الأوسى، روح المعاني 84/11.
- (33) سيد قطب، الطلال 2788/5.
- (34) المصدر السابق.
- (35) الأوسى، روح المعاني 84/11.
- (36) الحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة، كتاب: الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة، حديث رقم 5971 فتح الباري بشرح صحيح البخاري 4/12.

- (37) الفرطبي، الجامع لأحكام القرآن 14 / 64 والمرتبة الأولى مرتبة الأمومة.
- (38) الزجاج، معاني القرآن 196/4.
- (39) أخرجه البخاري في الأدب المفرد صفحة 18.
- (40) حديث « لا طاعة لمخلوق في معصية الله » أخرجه مسلم عن علي باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية جزء 2 / 1469
- (41) البغوي، معالم التنزيل - تفسير سورة العنكبوت آية 8 - 214/4.
- (42) الألوسي، روح المعاني 84/11.
- (43) الزمخشري، الكشاف 11/5.
- (44) البغوي، معالم التنزيل 239/4.
- (45) الرازي، مفاتيح الغيب 120/9.
- (46) الراغب، المفردات ص 827.
- (47) ينظر: النابلسي، نظرات في وصية لقمان ومنهج التربية ص 113 فما بعدها.
- (48) ابن عاشور، التحرير والتنوير 164/21.
- (49) الحديث: أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي ذر، رقم الحديث (21412)، مسند الإمام أحمد 183/5.
- (50) الحديث: أخرجه الحافظ ابن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، عن زيد بن أرقم رقم الحديث 176، كتاب الزهد، باب: ما قالوا في البكاء من خشية الله ، 319/8.
- (51) الرازي، مفاتيح الغيب 121/9.
- (52) الحديث: أخرجه الترمذي في سننه عن حديث بن قبيصة عن أبي هريرة، المباركفوري، تحفة الأحوذ بشرح جامع الترمذي رقم (411)، باب: ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد 382/2.
- (53) هناك حالات استثنائية نادرة معروفة ذكرت في كتب الفقه.
- (54) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير 122/9.
- (55) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 603/3.
- (56) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير 167/21.
- (57) سيد قطب، الطلال 2790/5.
- (58) الزمخشري، الكشاف 16/5.

- (59) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم 636 كتاب الأذان، باب: لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة والوقار، فتح الباري بشرح البخاري 328/2.
- (60) ينظر: الألوسي، روح المعاني وهلمشه 90/11 دار الفكر، بيروت.
- (61) ينظر: قطب، في ظلال القرآن 2790/5.
- (62) الحديث: أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله برقم (867)، كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، الإمام مسلم، الجامع الصحيح 592/2.
- (63) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب 123/9.
- (64) ينظر: الألوسي، روح المعاني 90/11.
- (65) ينظر: الزمخشري، الكشاف 18/5.
- (66) المصدر السابق بنفس الجزء والصفحة.
- (67) الرازي، مفاتيح الغيب 123/9 فما بعدها.
- (68) الحديث: رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رقم 3127، كتاب: بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، البخاري الجامع الصحيح 1202/3.
- (69) الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله، رقم 14293، الإمام أحمد، المسند 375/3.

المصادر والمراجع:

- 1 - الأصفهاني: العلامة الراغب الأصفهاني 425 هـ، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان داودي، ط 2 - 1418 / 1997، دار الفلم - دمشق، ط 3 نفس الدار - 2002.
- 2 - الألوسي: شهاب الدين السيد محمود الألوسي 1270 هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 3 - البخاري:
- الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، شرح وضبط وفهرسة: د. مصطفى البغا، ط 5 - 1414 / 1999، دار ابن كثير - دمشق.
- الأدب المفرد، ط 3 / 1989م/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي/ دار البشائر الإسلامية بيروت.
- 4 - البزار: الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، ت (292) البحر الزخار، المسند، تحقيق: عادل ابن سعد، ط 1 - 1424 / 2003 مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

- 5 - البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء (510 هـ)، معالم التنزيل، ط 1، 1422/2002، دار الفكر - بيروت.
- 6 - ابن أبي شيبة: الحافظ عبد الله بن محمد (ت 235 هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار، توثيق وتعليق سعيد اللحام، ط 1414/1994، دار الفكر - بيروت.
- 7 - ابن حجر: الحافظ أحمد بن علي العسقلاني، (ت 852 هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 1416/1996، دار الفكر - بيروت.
- 8 - ابن حنبل: الإمام أحمد (ت 241 هـ)، المسند، ط 1، 1413/1993، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 9 - ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس.
- 10 - ابن عطية: عبد الحق غاب الأندلسي (ت 546 هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: الرحالي الفاروقي ورفقاؤه، ط 1401/1981 - قطر.
- 11 - أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي (ت 754 هـ)، البحر المحيط، ط دار الفكر - بيروت، وطبعة 1/2001، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 12 - خان: صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن، مطبعة العاصمة - القاهرة.
- 13 - الرازي: فخر الدين ضياء الدين عمر (ت 606 هـ)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- 14 - الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله (ت 794 هـ)، البرهان في علوم القرآن، ط/2001، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 15 - الزمخشري: أبو الفاسم محمود بن عمر (ت 583 هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن، ط 1418/1998، مكتبة العبيكان - الرياض.
- 16 - الزيات: أحمد حسن الزيات ورفقاؤه، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية - تركيا.
- 17 - الطبراني: الحافظ أبو الفاسم سليمان بن أحمد (ت 360 هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط 2 - 1406/1985م.
- 18 - عباس: أ. د. فضل حسن، إتيان البرهان في علوم القرآن، ط 1، 1997، دار الفرقان - عمان.
- 19 - قطب: سيد،
 - في ظلال القرآن، ط 1394/1974، دار الشروق - بيروت.
 - خصائص التصور الإسلامي، ط 14، 1997م، دار الشروق - بيروت، القاهرة.

- 20 - قطب: محمد، الإنسان بين المادية والإسلام، ط 4، 1415 / 1995، دار الشروق - بيروت.
- 21 - لحام: حنان لحام، أضواء من سورة لقمان، ط 1، 1983 م، دار الثقافة للجميع - دمشق.
- 22 - المبارك فوري: الحافظ أبو العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (ت 1353 هـ)، تحفة الأخوذي بشرح جامع الترمذي، ط 1، 2001، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 23 - مسلم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261 هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي 1413 / 1992م، دار الكتب العلمية - بيروت/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
- 24 - نابلسي: محمد مصطفى، نظرات في وصية لقمان، ط 1، 1415 / 1994 م، دار الفرقان - عمان.
- 25 - يوسف: محمد خير رمضان، لقمان الحكيم وحكمه، ط 2، 1415 هـ / 1994م، دار الفلم - دمشق.



Eloquence Inimitability in Verses of Luqman's Advices and What is Involve of Values

Prof. Mustafa Ibrahim AlMashni

College of Shari'a and Islamic Studies, University of Sharjah
Sharjah, U.A.E.

ABSTRACT

This research investigates the eloquence and inimitability in the verses of Luqman's commandments to identify values unique to the Quran concerning exemplary human qualities (i.e. spiritual, mental, rational, and emotional). Such qualities allow humans to achieve self-esteem, become active in society, adhere to the practice and foundation of true worship and dawa', observe the rules of benevolence, good behaviour and morality, and be conscious of divine presence. All of these qualities are fundamental to good education.